

تاريخ النشر: 2023/06/18 تاريخ القبول: 2023/05/08 تاريخ الاستلام: 2022/09/13

محمد كحلوش^{*1}
جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر 02 (الجزائر)
Email: medkah@hotmail.com

عبد العزيز بوكنة²
جامعة أبو القاسم سعد الله – الجزائر 02 (الجزائر)
Email: boukscientific@gmail.com

الملخص:

تعتبر الصلات التي ربطت مدينة البندقية بالإمبراطورية البيزنطية من المسائل التاريخية الهامة لفهم تطور العلاقات بين الغرب و الشرق خلال فترة العصور الوسطى ، و على خلاف المدن البحرية الأخرى في شبه الجزيرة الإيطالية ، تمكنت مدينة البندقية أن تستفيد من تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية . و يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على الخلفيات و العوامل التي سمحت لمدينة البندقية بأن تفرض نفسها كقوة بحرية و تجارية ، و أهلتها لتصبح حليفا تاريخيا للعرش الإمبراطوري في بيزنطة .

لقد عملت البندقية على التحكم في شبكة العلاقات التجارية داخل البحر الأدرياتيكي، لتوسع نشاطاتها لاحقا نحو بحر إيجه و شرق البحر الأبيض المتوسط ، مستفيدة في ذلك علاقاتها مع بيزنطة ، التي لم تجد حرجا في استمالات النخب الفاعلة في مدينة البندقية بغرض الحصول على الدعم العسكري لحملاتها، خاصة في ظل تراجع أداء قوتها البحرية و عجزها في الحفاظ على ممتلكات الإمبراطورية في جنوب إيطاليا ، مقابل امتيازات متنوعة على عهد الأسرة المقدونية ، و قد اعتمدنا المنهج التاريخي في استجلاء صعود مدينة البندقية و علاقتها مع بيزنطة ، و كيف استطاعت أن تتحول إلى إمبراطورية بحرية ، و الذي يمكن ارجاعه بالأساس إلى قوة أسطولها البحري بشقيه العسكري و التجاري و تنظيمه ، و طبيعة موقعها الجغرافي الذي جعلها بمنأى عن التهديدات الخارجية التي كانت بعية المدن البحرية الإيطالية عرضة لها .

الكلمات المفتاحية: البندقية، الإمبراطورية البيزنطية، البحر الأدرياتيكي، البحر الأبيض المتوسط

Abstract:

En dépit de ses spécificités, Venise continue au 10eme siècles d'appartenir à l'empire byzantin, Mais contrairement à d'autres villes maritimes italiennes, la cité lagunaire a pu tirer profit de la régression navale byzantine, pour devenir un acteur régional important dans l'Adriatique. De ce fait, quelles en étaient les facteurs qui ont permis à la ville de Venise, ancienne dépendance byzantine, de s'assurer la prépondérance commerciale dans l'empire grâce, et Comment a-t-elle réussi à s'imposer comme allié historique de Byzance ?

C'est vrai que Venise obtint L'accès aux marchés de l'empire, En portant son aide militaire à Byzance sous les Macédoniens, ce que lui a permis de confirmer sa domination sur le monopole commerciales au sein de l'empire, mais en réalité cette domination Venise l'a doit en premier lieu à son emplacement géographique sur des petite îles sableuses, Protégée par sa lagune, bénéficiant ainsi d'une situation avantageuse à la jonction de l'Orient et de l'Occident et à ça logistique navale et sa puissante flotte et son organisation commerciale.

Keywords: Venise -Empire Byzantin- Adriatique-Commerce – doukes - Ravenne- mer Méditerranée

1. المقدمة :

كانت لبيزنطة والبندقية من الناحية النظرية علاقات وثيقة منذ القرن الخامس ميلادي ، حيث أصبحت البندقية جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية خلال حملات جستنيان الأول (527-565 م) ضد القوط الشرقيين في منتصف القرن السادس ميلادي (Nicol, 1988, pp. 1-35)، وظلت رسمياً تابعة لها ، يحكمها نائب بيزنطي ، إلى غاية أواخر القرن العاشر ميلادي ، حيث استطاعت الخروج من دائرة نفوذها ، و ذلك من خلال بسط سيادتها في البحر الأدرياتيكي و الهيمنة على منافسيها هناك ، مع التحكم في شبكة المبادلات التجارية ، و إيجاد جاليات تجارية مقيمة في عدة موانئ على البحر الأبيض المتوسط ، يرافقها أسطول تجاري و حربي قادر على دعم سياستها التوسعية ، و تعزيز تحولها من قوة إقليمية إلى قوة متوسطة .

فما هي العوامل التي مكنت مدينة البندقية - دون غيرها من المدن الإيطالية الأخرى الواقعة تحت نفوذ الإمبراطورية البيزنطية - من استغلال موقعها الجغرافي و صلاتها التجارية لتعيد صياغة مشهد علاقاتها سواء في فضاء البحر الأدرياتيكي أو مع الإمبراطورية البيزنطية في الفترة الممتدة ما بين 876 م - 1025 م ، و هي الفترة التي تزامنت مع جلوس أباطرة الأسرة المقدونية على عرش بيزنطة ؟ و للإجابة على هذه الإشكالية تم اعتماد المنهج التاريخي (الإستردادي) ، من خلال بسط التطورات التاريخية و محاولة تفسير تطور البندقية كقوة بحرية ناشئة وعلاقة ذلك بأوضاع الإمبراطورية البيزنطية ، و مدى تأثير موقع المدينة و أسطولها البحري على التطورات التاريخية التي عاشتها المدينة في علاقتها مع محيطها الإقليمي أو مع الإمبراطورية البيزنطية ، و ذلك وفق خطة من عدة عناصر ، فبعد أن قدمنا للموضوع ، تطرقت في العنصر الثاني للعوامل التي ساعدت مدينة البندقية على الازدهار و التي كانت ترتكز بالأساس على قوتها البحرية ، مبينا في نقطتين فرعيتين الأهمية التي كان يكتسبها البحر الأدرياتيكي في نظر البندقية و بيزنطة على حد سواء ، و كذا موقف السلطات البيزنطية من تنامي قوة المدينة و ازدياد نفوذها ، أما في العنصر الثالث فتناولت سياسة البندقية التوسعية ، من خلال الإشارة إلى خصوصيات الموقع الجغرافي لمدينة البندقية و الذي لعب دورا كبيرا في ظهورها على مشهد الأحداث ، و إلى سياسة المدينة

العسكرية و الاقتصادية في بسط نفوذها على البحر الأدرياتيكي. أما العنصر الرابع فقد خصصته لتطور العلاقات الدبلوماسية بين البندقية و الإمبراطورية البيزنطية على عهد الأسرة المقدونية ، و قد ضمنته نقطتين اثنتين ، الأولى تتعلق بالبعثة الدبلوماسية البيزنطية لعام 879 ميلادية إلى مدينة البندقية و دالاتها ، و الثانية تطرقت لمرسوم عام 992 ميلادية و خلفياته التاريخية ، و في الأخير قمت بمناقشة بعض النتائج التي خرجت بها قبل أن اختتم موضوع المقال.

2. عوامل ازدهار مدينة البندقية :

لقد قيل عن البندقية: " Non arat, non seminat, non vendemiat " و الترجمة الحرفية لهذه العبارة هي : لا حرت ، لا زرع و لا حصاد ، و هو ما يعني أن كل ما احتاجته المدينة لسكانتها باستثناء مادة الملح ، كانت تحصل عليه من خلال التجارة ، و التي توقفت عليها مسألة بقائها (Braudel, 1984, p. 108) ، هذا الأمر دفع بالبنداقية إلى الاعتماد على قوتهم البحرية لحماية مصالحهم و توسعاتهم بالخارج ، و قد كانت سياستهم تتمحور حول ضرورة المحافظة على القوة البحرية ، و العمل على تطويرها من خلال تجنيد كامل مقدرات المدينة المادية و البشرية لذات الغرض ، حيث أن العدد الضخم للمراكب في أسطول البندقية ساهم في تحول المدينة إلى مركز من مراكز القوة سياسيا و عسكريا و تجاريا .

1.2. أهمية البحر الأدرياتيكي بالنسبة للبندقية و بيزنطة :

يعتبر البحر الأدرياتيكي في الواقع بحرا مغلقا من الناحية الجغرافية ، حيث لا يصله بباقي فضاء البحر الأبيض المتوسط سوى مضيق أوترانتو الضيق ، الذي يربط بين بوليا وألبانيا بعرض 2 كيلومتر^{اً} (rowan, 2012, p. 236) ، و قد كانت حماية هذا البحر و حركة المرور به ، الأساس السياسي للتحالف التاريخي بين مدينة أُلْبُنَّة و الإمبراطورية البيزنطية ، و هو ما كان يعني للبندقية حرية الوصول إلى شرق و جنوب البحر الأبيض المتوسط ، مثلما كان يعني لبيزنطة مع استتاب الوضع فيه ، ضمانا لاستقرار علاقتها مع مقاطعاتها في جنوب إيطاليا ، فقد كان هذا البحر يعتبر في نظر القسطنطينية ، خط الدفاع الأول ضد الجيوش والقوات البحرية الساعية

لاختراق قلب الإمبراطورية عبر طريق إجناتيا Via Egnatia ، الممتد من ديراخيوم Dyrrhachion حتى سالونيك، و الذي كان على قدر كبير من الأهمية العسكرية ، ناهيك عن أهميته التجارية (Abulafia, 2011, pp. 252-269)

2.2. موقف بيزنطة من تنامي قوة البندقية :

يعزى تحول البندقية إلى قوة اقتصادية وسياسية خلال العصور الوسطى إلى عاملين ، أحدهما يتعلق بالظروف التي كانت تعيشها الإمبراطورية البيزنطية و التي كانت البندقية خاضعة لها ، فيما يتعلق الآخر بعملية إعادة تشكيل شبكة العلاقات في البحر الأدرياتيكي ، كما في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (Whittow, 1996, p. 307).

كالبهُعد الفضاء البيزنطي وإعادة هيكلته في القرنين التاسع والعاشر ميلاديين آثار إيجابية على تطوير الموانئ على البحر الأدرياتيكي ، فقد أدى تردي أوضاع الإمبراطورية البيزنطية إلى انحسار سيطرتها تدريجيا عن مدينة البندقية ، حيث دفعتها الظروف و تطورات الأحداث إلى تركيز اهتمامها و تجنيد مواردها للتصدي للأخطار التي كانت تتهدد قلب الإمبراطورية أو المناطق القريبة منه ، و لم يعد إبقاء مدينة كالبندقية تحت سيطرتها و ضمن دائرة نفوذها يشكل أولوية لديها ، خاصة و أن الإمبراطورية لم تكن تتوفر في القرن العاشر ميلادي على الموارد اللازمة لتسيير حملة عسكرية واسعة لاستعادة نفوذها على المدينة و محيطها ، كذلك التي سبق و أرسلها الإمبراطور جيستينيان نحو الغرب (رينسمان، 1997، ص ص49-51) . و هو ما ساعد على تطور البندقية في موقع مثالي بين فينيتو و إستريا .

و قد رأت بيزنطة أن مصالحها على تخوم ممتلكاتها في البحر الأدرياتيكي ، تقتضي منها العمل على تعزيز التمويل الذاتي لقدرات البندقية البحرية ، مما سيعفيها من النفقات اللازمة لصيانة أسطول بحري كبير هناك ، و هو وضع وجدت فيه البندقية فرصة مناسبة لها و لمشاريعها التجارية التوسعية ، رغم بقائها تحت إشراف الحكومة البيزنطية و استمرارها في دفع الضرائب لخزنتها ، لأنه عزز وجودها كقوة بحرية ناشئة ، و مكنها من احتكار الاتصالات بين القسطنطينية و شمال البحر الأدرياتيكي، و جعلها خلال القرنين التاسع و العاشر ميلاديين

نقطة الاتصال التجاري الرئيسية بين الغرب من جهة و بيزنطة و الشام من جهة أخرى (Waley et al, 2013, p. 5) ، حيث انخرط البنادقة في توريد المنتجات الزراعية من شمال إيطاليا نحو الساحل الدماشي و اليونان و الشام مقابل حصولهم على المنسوجات الشرقية و التوابل ، كما أن إتقانهم لطريقة إنتاج الملح عن طريق تبخير مياه البحر مكنهم من رؤوس أموال كبيرة (Backman, 2003, p. 288) ، و هو ما ضمن لهم الوصول إلى أسواق القسطنطينية ، حيث كان حجم تجارتهم هناك كبيرا إلى درجة كان يمكن معها تجاوز الخسائر المحتملة في رحلاتهم على طول المسار البحري بين مدينتهم و عاصمة الإمبراطورية (Shepard, 2008, p. 607).

3. سياسة البندقية التوسعية:

لقد شهدت القوة البحرية لمدينة البندقية في أواسط القرن التاسع ميلادي بداية نمو مطردا ، حيث شرعت المدينة في بناء مراكب أكبر سواء من حيث حجمها أو سعة حمولتها ، كما أنها تمكنت من إنشاء أسطول حربي سهل عليها ضمان أمن و سلامة قوافلها التجارية في البحر ، الأمر الذي ساهم و بشكل حاسم في توسيع شبكة علاقاتها التجارية و تشعبها (Diehl, 1915, p. 19) ، و جعلها في مركز القوى السياسية في المجال الحربي و التجاري على حد سواء.

1.3. خصوصيات الموقع الجغرافي لمدينة البندقية :

من المفارقات أن موقع مدينة البندقية في سهل منخفض بأقصى شمال البحر الأدرياتيكي بإطلالة على الخليج المسمى باسمها (الشكل 1) ، و الذي يتكون من خليجين أولهما الخليج الراكد بالمستنقعات ، وثانيهما الخليج الحي الذي تنتشر فيه الجزر صغيرة المتصلة بالبحر الأدرياتيكي (ديل، 1947، ص ص 7-9) ، كان قد فرض على سلطات المدينة تحديات كبيرة في سبيل تهيئة البيئة التي ستشكل المركز التاريخي لمدينتهم ، و الشاهد على تطورها ، لكن هذا الموقع و بالمقابل وفر لها درجة كبيرة من الاستقرار الاقتصادي مقارنة بمواقع مدن أخرى على طول الساحل ، فهي لم تكن مجبرة على تحمل النفقات الباهضة من أجل تحسين دفاعاتها و تشييد أسوار و أبراج لحماية نفسها ، فطبيعة موقعها جعلت من صعب مهاجمتها عن طريق البر أو البحر ، و هي ميزات لم تكن تتوفر لبقية المدن ، و قد استطاعت البندقية أن تستفيد من ذلك لتصبح أقوى من أي وقت مضى. (Frankopan, 2021, p. 280)

2.3. سياسة البندقية التوسعية في الأدرياتيكي:

لقد شقت البندقية طريقها مستفيدة من خصوصية موقعها ، معتمدة على قوتها التجارية كسلاح رئيسي ، و كانت أولى مآثرها البحرية البارزة في هذا الباب دفاعها عن التبادل السلمي للبضائع و حرية التجارة و التي كانت قد تطورت تحت الحماية البيزنطية ، حيث ساعدها توسعها في البحر الأدرياتيكي خلال القرن العاشر ميلادية ، نتيجة نمو أسطولها التجاري والبحري ، على سد الباب تدريجيا أمام أي منافسة تجارية للمدن الواقعة ضمن نطاق هذا المجال الحيوي ، كمدن كومماكيو (Comacchio) ، فيرارا (Ferrara) ، أنكونا (Ancône) ، سبالاتو (Spalato) ، زارا (Zara) و مدينة راجوزا (Ragusa) (Braudel, 1984, p. 109) ، كما سمح لها بضممان أكبر قدر من الأمن و السلامة لحركة سفنها على طول ساحل دالماشيا ، و الذي كان يعتبر ممر الإبحار المفضل بين البندقية والبحر الأبيض المتوسط (Pryor, 1988, pp. 93-94) ، بالنظر لطبيعة تكوينه صخري و وفرة الجزر والخلجان و الموانئ الطبيعية على طول الساحل و التي مثلت ملاذا آمنا للسفن أثناء العواصف أو ضد هجمات القراصنة ، علاوة على ذلك ، فإن جبال الألب الدينازية التي تمتد على طول الساحل الشرقي كانت بمثابة معالم ثابتة لتسهيل حركة الملاحة خاصة و أن البوصلة لم تكن قد اكتشفت بعد .

و يرى المؤرخ دافيد جاكوبي (Jacoby, 2018, p. 374) أن من العوامل الخفية التي دفعت بالبندقية إلى تفضيل هذا المسار هو سهولة التزود بالأخشاب ، مستدلا في ذلك بالقرار الذي أصدرته المدينة عام 971 ميلادي ، و القاضي بمنع السفن المبحرة نحو البحر الأبيض المتوسط من تحميل الأخشاب على طول الساحل الدلاشي ، و هي فترة كانت قد تزامنت مع تزايد الطلب المصري على الأخشاب .

بينما يذهب مؤرخون آخرون من أمثال (Pryor, 1988, pp. 75-77 , 83-85, 93-94) إلى أن هناك مجموعة أخرى من العوامل التي دعت البنادقة إلى الإهتمام بهذه المنطقة و جعلت السفن العابرة لهذا البحر إنطلاقا من مدينة البندقية باتجاه البحر الأبيض المتوسط تتخذ مسارها على امتداد الساحل الشقي للبحر الأدرياتيكي بدلاً من ساحله الغربي :

1/ الطبيعة الجيولوجية للمنطقة : يتوفر الساحل الدلاشي على الكثير من المرفئ الطبيعية ، إضافة إلى وجود جبال الألب الدينازية التي تمتد على طول الساحل الشرقي و التي شكلت معالم

طبيعية ساعدت الملاحين و البحارة على تحديد مسارهم ، خاصة قبل اختراع البوصلة (rowan, 2012, pp. 236-238).

2/ سعة المراكب : لقد تميزت مراكب العصور الوسطى على وجه عام بمحدودية سعة حمولتها ، و هو ما فرض عليها التوقف بصورة متكررة للحصول على إمداداتها خاصة من المياه العذبة. (McCormick, 2001, p. 528)

لقد سعت البندقية و على مراحل متتالية لبسط سيطرتها على البحر الأدرياتيكي في قسمه العلوي أولاً ، ثم على دالماشيا والقسم الأوسط منه ، وأخيراً على الجزء السفلي منه (الشكل 2) ، حيث كان نشاطها في المناطق الثلاث يجري باعتبارها تابعة للإمبراطورية البيزنطية أحياناً ، و كحليف مستقل في أحيان أخرى .

ففي خليج البندقية ، كانت مسؤولية حماية الحركة التجارية تقع على عاتق البنادقة، خاصة بعد الضعف الذي أظهرته البحرية البيزنطية التي كانت تستخدم رافنا Ravenna كقاعدة رئيسية لها ، و قد كان هذا هو الإنجاز الرئيسي لدوجات عائلة كانديانو التي حكمت البندقية لمعظم القرن العاشر الميلادي (Lane, 1973, p. 24)، حيث لجأت سلطات مدينة البندقية إلى أسلوبيين في فرض سيطرتها على مياه الأدرياتيكي :

أ/ عسكرياً : كان بناء السفن للاستخدام التجاري والعسكري وتصنيع الأسلحة من العوامل الرئيسية في التوسع التجاري والبحري لمدينة البندقية في البحر الأدرياتيكي وشرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد سعى الدوجات و الذين امتاز معظمهم ببعد النظر ، منذ العصور المبكرة إلى تطوير القوة البحرية للمدينة ، و كانت أول مبادرة في هذا المنحى على عهد الدوج باولو لوسيو أنافيسستو Paolo Lucio Anafesto (697 م) ، الذي أمر بزيادة عدد المراكب في كل محطة من المحطات التي ترسو بها السفن لأجل أن تتوافق القوة البحرية مع حجم و احتياجات تلك المناطق ، كما أمر أن تكون أحواض بناء السفن محاطة بالجدران ، لحمايتها من هجمات القراصنة المتكررة ، و من أخطار السرقة أو الإحراق . (Alethea, 1910, p. 5)، و قد استمرت البندقية في تعزيز قوتها البحرية في القرن التاسع الميلادي من خلال بناء مراكب على شاكلة النموذج الذي كانت عليه السفن البيزنطية ، و التي كانت متفوقة من الناحية التقنية على السفن

التي كانت تبحر في البحر الأدرياتيكي حتى ذلك الوقت . (Pryor et al, 2006, pp. 166 –170, 188-192)

و حتى تاريخ تأسيس سلطات البندقية لأسطول دائم في عام 1301 ، كان يتم تجنيد قوات الأسطول ، على غرار أساطيل البحر الأبيض المتوسط الأخرى ، بشكل خاص من رعايا المدينة و بعض المرتزقة ، فيما يشبه جيشا إقطاعيا نموذجيا ، تحت قيادة الدوج شخصيا ، و الذين كان يقع على عاتقه استدعاء المواطنين وسفنهم وطواقمهم ، و في حالة فشله في حشد قوات الأسطول فإنه عادة ما كان يخلع أو يتعرض للقتل (Gertwagen, 2017, p. 171)

إن المد التجاري الذي عرفته المدينة خلال القرن العاشر ميلادي ، دفعها لاستخدام القوة بدرجة مفرطة في سبيل الحفاظ على مصالحها ، حيث جندت مواردها الحربية في مواجهة صقلية على الضفة الشرقية للبحر الأدرياتيكي ، و قد أبان البنادقة عن قدرات قتالية كبيرة سواء في البر أو البحر من خلال حملاتهم ضد صقلية المنتشرين على الضفة الشرقية للبحر الأدرياتيكي ، و لم يكن من الغريب رؤيتهم و هم يطاردونهم بعيدا عن السواحل ، بسبب تهديدهم لسلامة قوافل البندقية التجارية (Vigueur, 2003, p. 265) ، و هي نفس السياسة التي انتهجتها ضد مدينة كومماكيو Comacchio و التي كانت تعتبر أهم منافس تجاري للبندقية في فضاء البحر الأدرياتيكي ، حيث لم يتوان الدوج بطرس الثاني كانديانو (932-939 م) في تدميرها و تحويلها إلى رماد عام 932 ميلادية ، بعد عقود من المواجهة المشحونة بالعداء ، بسبب تعرض رعاياها لتجارة البندقية ، و هو نفس المصير تقريبا الذي عرفته مدينة كابودستريا Capodistria على الجانب الآخر من الخليج و التي قام بغزوها لنفس السبب (Lane, 1973, pp. 23-24) ، كما شنت سلطات المدينة مواجهة مفتوحة ضد القراصنة الذين كانوا يعيشون فسادا في الأدرياتيكي ، كالكرواتيين الذين كانوا يقيمون على الساحل الدلاشي و النارنتيون (Narentans) على مصاب نهر نارنتا (Narenta) ، و الذين يعود فضل القضاء عليهم للدوج بطرس الثاني من آل أورسيولو (ديل، 1947، ص 23) .

ب/إقتصاديا : في حالات أخرى أين امتنعت البندقية عن اللجوء إلى القوة العسكرية ، كان الدوجات يمارسون سياسة الحصار التجاري من خلال قطع الإمدادات ، كما حدث مع بعض المدن في استيريا (Istrie) ، كانت قد أرادت تنظيم حملة عامة للقرصنة ضد الشحن البحري في البندقية ، و قد اضطرت هذه المدن أمام صرامة المقاطعة التي فرضتها البندقية و شح الإمدادات

و عمليات التموين إلى التراجع و طلب صلح ، و هو نفس الإجراء الذي اتبعه بطرس الثالث كانديانو (942-959م) في نزاعه مع مدينة أكويليا (Aquileia) (Lane, 1973, p. 24).

ويُظهر اللجوء إلى المقاطعة الاقتصادية المقرونة بالعمل العسكري أن البندقية كانت هي المهيمن الفعلي على نشاطات التجار والناقلين في هذه المنطقة ، و حتى و إن لم تكن المناطق المحيطة بخليج البندقية خاضعة لسلطة المدينة السياسية ، إلا أن هذه المناطق فشلت في إيجاد أسطول بحري قادر على رفع التحدي أما أسطول البنادقة ، و هو ما شجع المدينة على استغلال دورها كوسيط بين الشرق و الغرب (Cancellieri et al., 2015, p. 28)، و الذي كانت ترمي من ورائه إلى احتكار توريد السلع و البضائع من الشرق نحو الغرب أو العكس ، بما في ذلك تجارة الرقيق و التي لقيت رواجاً كبيراً رغم معارضة سلطات المدينة لها (Alethea, 1910, p. 18) ، حيث وجد تجار البندقية فيها تجارة مربحة للغاية جعلتهم يعمدون إلى طرق مختلفة لتجاوز قرار السلطات في هذا المجال ، إذ كان يتم جلب الرقيق من أواسط أوروبا و شرقها ، ليتم بيعهم للمسلمين و الفرنجة (McCormick M. , 2001, p. 795) ، الأمر الذي خلق فرصاً جديدة لتجار البندقية، لدرجة أنه حتى مع تزايد خطر نشاط القراصنة على المسارات البحرية المعتادة بين البحر الأدرياتيكي و القسطنطينية ، تم اللجوء إلى إتباع مسارات بحرية جديدة للحفاظ على ديمومة تدفق البضائع و السلع ، كما أن سفراء الغرب كانوا عادة ما يفضلون السفر على متن مراكب البندقية ، و التي كانت مكلفة كذلك بحمل البريد (رنسيان، 1997، ص 200)

لقد ضمنت الاحتياطات الوفيرة من الخشب والحديد ، إلى جانب الخبرة المتقدمة في بناء السفن التفوق البحري للبندقية في فضاء الأدرياتيكي ، حيث تم استخدام نفس السفن للأغراض التجارية والعسكرية ، مما مكن البندقية من نسج هيمنتها التجارية في البحر الأدرياتيكي على حساب منافسيها و برعاية بيزنطية مقابل وعود بالدعم العسكري البحري ، وهو ما عزز وظيفتها كوسيط تجاري بين المناطق النائية القارية وشرق البحر الأبيض المتوسط .

4. تطور العلاقات الدبلوماسية بين البندقية و الإمبراطورية البيزنطية على عهد الأسرة المقدونية 867م-1057م:

رغم أن البندقية قد نجحت في إقرار سياسة داخلية قائمة على مبدأ الحكم الذاتي خلال القرن الثامن ، بعد أن أجاز البيزنطيون للدوجات المحليين (doukes) حكم المدينة ، إلا أن سياستها الخارجية بقيت جزئيا مرتبطة بمشيئة أباطرة الإمبراطورية الشرقية خلال القرون التالية (Nicol, 1988, pp. 10-11)، و قد ظلت العلاقات بين البندقية و بيزنطة جيدة بشكل عام حتى نهاية القرن العاشر ميلادي ، و يتضح ذلك من خلال الرحلات الدبلوماسية المتكررة التي كان يقوم بها أبناء الدوجات إلى عاصمة الإمبراطورية ، و كذا تبادل الهدايا بين المدينتين (McCormick, 2001, pp. 952-953,963)

و في بداية القرن التاسع على وجه الخصوص و نظرا لتراجع قوتهم البحرية ، تكررت التماسات البيزنطيين لدى سلطات مدينة البندقية من أجل المساعدة على صد هجمات المسلمين في البحر الأدرياتيكي ، و الحيلولة دون فقدان أملاكهم في جنوب إيطاليا، و هو ما استدعى تدخل المدينة في ثلاث مناسبات بين عامي 820م و 841 م ، و قد منيت جميع هذه التدخلات بفشل ذريع (Archibald, 1951, p. 122) ، و من المرجح أن تدخل البندقية إلى جانب البيزنطيين جاء نتيجة التزامات مترتبة عن زواج بعض دوجات المدينة من نساء بيزنطيات (رنسيما، 1997، ص 191) ، و تمتعهم بالألقاب و التشريفات و الخطوة لدى العرش الإمبراطوري (Shepard, 1992, pp. 59-60)

و قد كانت آخر هذه التدخلات بداية عام 840 م ، بعدما أرسل الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس Theophilus (829-842) البطريق ثيودوسيوس إلى البندقية في مهمة دبلوماسية مهمة ، تمحورت حول تنظيم البندقية لحملة عسكرية بهدف صد القوات الإسلامية التي حاصرت مدينة تارانتو (Tarente) ، و قد قلد ثيودوسيوس بالمناسبة دوق البندقية بيترو ترادونيكو Pietro Tradonico اللقب البيزنطي spatharius (Gasparrri, 2017, p. 174).

1.4. البعثة الدبلوماسية البيزنطية لعام 879 ميلادية:

لقد لاحظ أباطرة بيزنطة على عهد الأسرة المقدونية تنامي قوة المدينة و نمو نشاطات أسطولها ، و أدركوا أهمية توطيد علاقتهم مع البندقية للاستفادة من الأوضاع المستجدة ، و هو ذات السياق الذي جاءت في خضمه البعثة الدبلوماسية البيزنطية إلى مدينة البندقية عام 879

ميلادية ، فقد كان الإمبراطور باسيلئوس الأول 867-886 م يهدف من خلالها إلى إعادة بعث العلاقات بين بيزنطة و البندقية والعمل على تمتين الروابط التاريخية التي جمعتهم ، في محاولة منه لاحتواء المدينة و إبقائها ضمن دائرة نفوذ القسطنطينية ، حيث تكشف ملابسات و ظروف هذه البعثة الدبلوماسية عن بداية حدوث تغيرات في ميزان القوى ، في ظل بداية صعود البندقية كقوة سياسية في عالم البحر الأبيض المتوسط .

كانت وفود البندقية فيما سبق ، ملزمة بالانتقال إلى العاصمة البيزنطية دونما تأخير كلما أبدت السلطات الإمبراطورية رغبتها في ذلك ، و ذلك وفق ما درجت عليه الأعراف الدبلوماسية البيزنطية ، و كان الهدف من وراء ذلك هو استعراض مظاهر العظمة و الأبهة أمام الوفود وتذكيرها بقوة و ثراء الإمبراطورية ، لكن الأمر اختلف مع البعثة الدبلوماسية لعام 879 ميلادية ، فالإمبراطور باسيلئوس الأول كان يدرك أن الإمبراطورية لم تعد في وضع سياسي أو عسكري يسمح لها بأن تستمر في ممارساتها السابقة ، خصوصا أمام تنامي القوة البحرية البندقية و ما كان يمكن أن توفره للقوات الإمبراطورية من دعم و إسناد ، و هو ما جعله يغض الطرف عن هذا العرف الدبلوماسي المترسخ و يسمح بانتقال بعثة بيزنطية إلى البندقية ، في محاولة منه لكسب ود سلطات المدينة ، كما أنه حمل البعثة بمدايا قيمة و نفيسة ، و خلع على الدوج من خلال أعضاء البعثة لقب حامل السيف الأول بروتوسباتاريوس، protospatharios و قد كان حملة هذا اللقب يشكلون طبقة خاصة بين حملة الألقاب ، و تقضي العضوية ضمن هذه الطبقة الحصول على علاوة سنوية تدفع من أموال الخزينة البيزنطية (طارق، 2015، ص 61)، (McCormick, 1986, pp. 21-24) كما أقر له ترقية ضمن سلم رتب العائلات البيزنطية (Nicol, 1988, p. 33)

2.4. مرسوم عام 992 ميلادي :

بعد حوالي قرن من الزمن ، و على عهد الإمبراطور باسيلئوس الثاني Basil II (976-1025) ، و دوج البندقية بطرس الثاني أورسيولو Pietro II Orseolo (991-1009) ، جاء مرسوم عام 992 ميلادي ليشهد على تنامي النطاق الجغرافي لحركة الملاحة الناشئة في شمال البحر الأدرياتيكي ، و على الأهمية المتزايدة للنمو التجاري الذي عرفته مدينة البندقية (Frankopan, 2021, p. 280) ، و قد مثل هذا المرسوم الممهور (Chrysobull) أولى امتيازات مدينة البندقية

بالقسطنطينية (Pirenne, 1937, p. 19) ، و التي تلقتها نظير مدھا يد العون للإمبراطور باسيلوس الثاني الذي كان بصدد توجيه حملة عسكرية ضد البلغار في محاولة منه لإعادة ضم جنوب البلقان إلى جسم الإمبراطورية ، و قد كان الإمبراطور باسيلوس الثاني يهدف إلى تقوية الروابط السياسية بين البندقية والإمبراطورية ، و تشجيع تجار البندقية على التجارة مع القسطنطينية على حساب مصر، والتي سوف تصبح مركزا تجاريا مزدهرا بعد الفتح الفاطمي لها عام 969 ميلادي .

و قد جاء المرسوم شكل تعليمية (Præceptum) صادرة عن الإمبراطور و لم يكن ميثاقا (Pactum)، حيث لا يظهر فيها البنادقة كطرف ، فلم يكن هناك عقد بين الطرفين ، و إنما يحصل البنادقة على امتيازات و تفرض عليهم الالتزامات كأشخاص ، و كانت الإمتيازات في شكل تخفيضات جمركية معتبرة (Brown, 1920, p. 69) عند الدخول و الخروج من مياه الدردنيل ، حيث كانت تتم جباية الرسوم على صادرات الواردة للقسطنطينية على مستوى المدينة ، في حين كان يتم تحصيل الرسوم على البضائع الواردة من الغرب في مدينة أبيدوس (Abydos) على الدردنيل أو في مدينة هيرون (Hieron) على البوسفور (رينسمان، 1997، ص 203) ، كما كفل لهم المرسوم التمتع بحق الحماية ضد ما يمكن اعتباره تعسفا من طرف الموظفين البيزنطيين ، إذ تم سحب مهمة تفتيش مراكب البنادقة من صغار موظفي الجمارك و القائمين على الموانئ ، لتوكل لموظف كبير من موظفي المالية (هايد، 2003، ص 188)

و هي تسهيلات مكنت البنادقة من تبوأ مركز صدارة في أسواق الإمبراطورية مقارنة بتجار مدينتي أمالفي و باري ، و إن كان هناك من يرى أن هذا الإتفاق لم يغير شيئا كثيرا في وضعية البندقية التجارية داخل الإمبراطورية البيزنطية بدليل أن مدن ايطالية أخرى كمدينة أمالفي مثلا ، ظلت تلعب دورا رائدا داخل الإمبراطورية على المستوى السياسي والتجاري (Saint-Guillain, 2007, p. 257) ، الأمر الذي ساهم في تعاظم ثروة المدينة بشكل متسارع . (Diehl, 1915, p. 20)

يعتبر مرسوم باسيلوس الثاني للممنوح للبنادقة عام 992 ميلادية ، أول وثيقة من هذا النوع تتطرق إلى وضعية تجار البندقية في الإمبراطورية البيزنطية (Oldrich, 1984, p. 358) و قد جاء بمثابة إقرار لجميع العلاقات البحرية والتجارية التي أنشأها البنادقة على طول المسارات المؤدية إلى الإسكندرية و القسطنطينية (Thiriet, 1959, p. 34) .

و تشهد وثائق أرشيف المدينة من عقود و مراسلات و التي تعود إلى تسعينيات القرن العاشر ميلادي ، إلى ظهور أسماء لأسر جديدة على المشهد التجاري ، و هو ما يدل على تزايد الفرص أما التجار الراغبين في الاستفادة من توسع مصالح المدينة ، كما يكشف أن صعوبات التي واجهت الإمبراطورية ، قد فتحت إمكانيات جديدة أمام أبناء المدينة للنظر إلى ما وراء البحر الأدرياتيكي (Abulafia, 1984, pp. 195-216) ، و ليس من قبيل المصادفة أن كتاب العدل البنادقة قد امتنعوا عن ذكر أسماء الأباطرة البيزنطيين في بيانات ووثائقهم بداية من الربع الثاني من القرن الحادي عشر ميلادي (Magdalino, 2003, p. 159) ، و هو ما يعني بداية مرحلة جديدة في علاقة البندقية مع بيزنطة .

النتائج ومناقشتها:

إن أهم ميزة للسياسة التجارية لمدينة البندقية ، هي أنها تجاوزت منطق تحقيق الاكتفاء الذاتي ، و هي الحالة التي كان عليها الاقتصاد البيزنطي ، بل تعدته للبحث عن آفاق تجارية أوسع لتحقيق قدر أكبر من القوة التجارية و النفوذ ، و قد ظل هذا المسعى يمثل حتمية لضمان بقاء المدينة و استمراريته في ظل محدودية موارد المدينة على البر بالنظر لطبيعة موقعها الجغرافي ، و قد كان دوجات البندقية يعتبرون تجارة مدينتهم بمثابة شبكة متكاملة في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط ، و هو ما جعل القسطنطينية في نظرهم حلقة ضمن الدائرة التجارية الممتدة من الأدرياتيكي إلى النيل عبر البلقان و الجزر اليونانية و الشام ، بدل أن تكون المحطة النهائية لتاجر البندقية .

خاتمة:

لقد اتسعت طموحات البندقية التوسعية بعد ما استطاعت أن تفرض سطوتها على مياه البحر الأدرياتيكي و أن تبني ازدهارها الاقتصادي على التجارة البحرية ، فمن الناحية الجغرافية ، كانت المدينة تمثل نقطة التقاء بين الشرق والغرب ، و قد أحسن سكانها ، كونهم تجاراً موهوبين ، الاستفادة من هذه الميزة ، حيث أبحرت سفنهم لتعود بالبضائع المختلفة ، و هو ما ساهم في ازدهار المدينة ، و قد عملت سلطات المدينة على صد كل ما من شأنه أن يشوش على الملاحة العادية في البحر الأدرياتيكي ، فقضت على القرصنة المحلية و على القراصنة الدلاشييين ، كما أخضعت المدن التي وقفت في وجه توسعاتها الإقليمية ، مستفيدة في ذلك من قوة أسطولها البحري و مركزية القرار السياسي لدى نخبتها الحاكمة ، و قد أدرك العرش البيزنطي أهمية وجود البندقية كقوة إقليمية على تخوم أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، ما دامت على ولائها للعرش الإمبراطوري ، و قد اتضحت معالم ذلك من خلال التطور الذي شهدته علاقات البندقية مع بيزنطة بداية من عهد الأسرة المقدونية ، حيث أصبحت البندقية حليفاً أكثر من كونها تابعة لبيزنطة ، و هو ما استغلته في توسيع شبكة علاقاتها التجارية لتشمل شرق المتوسط ، و بحر إيجه ، مع العمل على التحرر شيئاً فشيئاً من نفوذ بيزنطة ، التي بدأت تعاني مع مرور

الوقت من انهيار اقتصادي مصحوب بفوضى سياسية أغرقت بيزنطة في حرب و اضطرابات داخلية ، و هو ما جعل الإمبراطورية تلجأ إلى استجداء خدمات البندقية مع بداية القرن الحادي عشر ميلادي مقابل جملة امتيازات جاء بها مرسوم 1082 ميلادية ، و الذي أعتبر البداية الفعلية للتغلغل اللاتيني في جسم و اقتصاد الإمبراطورية ، و أدى في النهاية إلى سقوطها مع الحملة الصليبية الرابعة عام 1204 ميلادية (عمران، 2000، ص 343).

ملاحق :

الشكل 1:



المصدر: Igor S. Zonn et autre, 2020, p.360.

الشكل 2:



المصدر: Lane C.Frederic , 1973, p.25

قائمة المراجع:

- 1- Nicol, D. M. (1988). *Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relations*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 2- Braudel, F. (1984). *The Perspective of the World , Civilization and capitalism* (Vol. 3). London: Collins.
- 3- 3-rowan, w. d. (2012). *Adriatic Trade Networks in the Twelfth and Early Thirteenth Centuries*. Dans c. morrison, *Trade and Markets in Byzantium* (pp. 235-279). Washington: Dumbarton Oaks Research Library and Collection.
- 4- Abulafia, D. (2011). *The Great Sea A Human History of the Mediterranean*. New York: Oxford University Press.

- 5- Whittow, M. (1996). *The Making of Orthodox Byzantium, 600-1025*. USA: Macmillan press.
- 6- ستيفن رينسمان. (1997). الحضارة البيزنطية (الإصدار ط 2). (عبد العزيز توفيق جاويد، المترجمون) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 7- Waley et al, D. (2013). *The Italian City-Republics* (éd. Fourth). England: Routledge.
- 8- Backman, C. (2003). *The Worlds of Medieval Europe*. Oxford: Oxford University press.
- 9- Shepard, J. (2008). *Byzantium and the west* (Vol. 3). (c. 9.-c. the new Cambridge medieval history, Éd.) Cambridge: Cambridge University Press.
- 10- Diehl, C. (1915). *une république patricienne, Venise*. Venise: Ernest Flammarion.
- 11- شارل ديل. (1947). البندقيّة جمهورية أرستقراطية. القاهرة: دار المعارف.
- 12- Frankopan, P. (2021). *The Rise of the Adriatic in the Age of the Crusades*. Dans S. 13-Magdalena, *Byzantium, Venice and the Medieval Adriatic: Spheres of Maritime Power and Influence, c.700-1453*. (pp. 276 - 295)Cambridge: Cambridge University Press.
- 13- Braudel, F. (1984). *The Perspective of the World , Civilization and capitalism* (Vol. 3). London: Collins.
- 14- Pryor, J. (1988). *Geography, Technology and War: studies in the maritime history of the Mediterranean, 649-1571*. Cambridge: Past and Present Publications.
- 15- Jacoby, D. (2018). *Medieval Trade in the Eastern Mediterranean and Beyond*. New York: Routledge.
- 16- Pryor, J. (1988). *Geography, Technology and War: studies in the maritime history of the Mediterranean, 649-1571*. Cambridge: Past and Present Publications.
- 17- rowan, w. d. (2012). *Adriatic Trade Networks in the Twelfth and Early Thirteenth Centuries*. Dans c. morrison, *Trade and Markets in Byzantium* (pp. 235-279). Washington: Dumbarton Oaks Research Library and Collection.
- 18- McCormick, M. (2001). *Origins of the European Economy: Communications and Commerce, A.D. 300-900*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 19- LaneChapin, F. (1973). *Venice: A Maritime Republic*. Baltimore: The Johns Hopkins University Press.
- 20- Alethea, W. (1910). *the navy of Venice*. New York: e. p. Dutton and Company.
- 21- Pryor, et al. (2006). *The Age of the Dromwn the byzantine navy ca 500-1204* . Leiden - Boston : 2006 .
- 22- Gertwagen, R. (2017). *The naval power of Venice in the eastern Mediterranean in the Middle Ages*. Dans M. B. Christian Buchet, *The Sea in History - The Medieval World* (pp. 170-183). Boydell & Brewer.
- 23- Vigueur, J.-C. (2003). *Cavaliers et citoyens . Guerre, conflits et société dans l'Italie communale, XIIe -XIIIe siècles*. Paris: EHESS.
- 24- LaneChapin, F. (1973). *Venice: A Maritime Republic*. Baltimore: The Johns Hopkins University Press.
- 25- شارل ديل. (1947). البندقيّة جمهورية أرستقراطية. القاهرة: دار المعارف.
- 26- LaneChapin, F. (1973). *Venice: A Maritime Republic*. Baltimore: The Johns Hopkins University Press.
- 27- Cancellieri et al., V. M. (2015). *Villes portuaires de Méditerranée occidentale au Moyen Âge, Îles et continents, XIIe-XVe siècles*. Palermo: Associazione Mediterranea.
- 28- Alethea, W. (1910). *the navy of Venice*. New York: e. p. Dutton and Company.
- 29- McCormick, M. (2001). *Origins of the European Economy: Communications and Commerce, A.D. 300-900*. Cambridge: Cambridge University Press.

- 30- ستيفن رينسمان. (1997). الحضارة البيزنطية (الإصدار ط 2). (عبد العزيز توفيق جاويد، المترجمون) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 31- Nicol, D. M. (1988). *Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relations*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 32- McCormick, M. (2001). *Origins of the European Economy: Communications and Commerce, A.D. 300-900*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 33- Archibald, R. L. (1951). *Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100*. Princeton: Princeton University Press.
- 34- ستيفن رينسمان. (1997). الحضارة البيزنطية (الإصدار ط 2). (عبد العزيز توفيق جاويد، المترجمون) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 35- Shepard, J. (1992). *Byzantine Diplomacy, A.D. 800-1204: Means and Ends*. Dans J. S. Franklin, *Byzantine Diplomacy*. (pp. 41-71). Cambridge: Variorum.
- 36- Gasparri, e. a. (2017). *The Age of Affirmation: Venice, the Adriatic and the Hinterland between the 9th and 10th Centuries*. Belgium: Brepols.
- 37- منصور طارق. (2015). بيزنطة : مدينة النظم والحضارة (دراسات و بحوث) . مصر: دار الفكر العربي.
- 38- McCormick, M. (1986). *Triumphal Rulership in Late Antiquity, Byzantium and the Early Medieval West*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 39- Nicol, D. M. (1988). *Byzantium and Venice: A Study in Diplomatic and Cultural Relations*. Cambridge: Cambridge University Press.
- 40- Frankopan, P. (2021). *The Rise of the Adriatic in the Age of the Crusades*. Dans S. 42-Magdalena, *Byzantium, Venice and the Medieval Adriatic: Spheres of Maritime Power and Influence, c.700-1453*. (pp.276-295) Cambridge: Cambridge University Press.
- 41- Pirenne, H. (1937). *Economic and social history of medieval europe*. (I.E.Clegg, Trad.) New York: Harcourt
- 42- Brown, H. F. (1920). The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century. *Journal of Hellenic Studies*, 40 (1).(pp. 68-88).
- 43- ستيفن رينسمان. (1997). الحضارة البيزنطية (الإصدار ط 2). (عبد العزيز توفيق جاويد، المترجمون) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 44- ولهام هايد. (2003). تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى (المجلد 1). (أحمد محمد رضا، المترجمون) سوريا: دار الفكر.
- 45- Saint-Guillain, G. (2007). *Les Vénitiens et l'état byzantin avant le XIIe siècle*. Consulté le 2021, sur OpenEdition Books.
- 46- Diehl, C. (1915). *une république patricienne, Venise*. Venise: Ernest Flammarion.
- 47- Oldrich, T. (1984). Some notes on the significance of the imperial chrysobull to the venetians of 992. *Byzantion*, 54 (1), , pp. 358-366.
- 48- Thiriet, F. (1959). *La Romanie vénitienne au Moyen Age*. Paris: Boccard.
- 49- Abulafia, D. (1984). Ancona, Byzantium and the Adriatic 1155-1173. *Papers of the British School at Rome*, 52, pp. 195-216.
- 50- Magdalino, P. (2003). *Byzantium in the year 1000*. Leiden Boston: Brill.
- 51- محمود عمران. (2000). معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- 52- Zonn, Igor (Author). (2020). *The Adriatic Sea*. Encyclopedia.Moscow . Springer.